

الحمام الزاجل في العصور الوسطى

المتواتر في كتب المؤرخين المسلمين أن السلطان نور الدين أول من اعتنى بالحمام الزاجل في الدولة الإسلامية واستخدمه في نقل المكاتبات بين مصر والبلاد الشامية ، وأنه نقل إلى تلك البلاد سنة ٥٦٥ هـ (١١٨٩ م) حماماً من مدينة الموصل ، وشيد له - ولا سيما في مصر بعد أن مد نفوذه عليها بفضل رجاله من بني أيوب - أبراجاً أقام بها الحراس يرقبون وصول الحمام ليل نهار^(١) . على أن الباحث في تاريخ الشرق الإسلامي في العصور الوسطى يلمس بين طيات الكتب شذرات تشير إلى أن المعرفة بالحمام الزاجل ، واستخدامه في نقل المكاتبات ، ترجع إلى ما قبل عهد نور الدين بكثير في الدولة الإسلامية ، بل إن اهتمام بعض الدول القديمة بالحمام الزاجل ينقض القول بسبق المسلمين على غيرهم من الدول في استخدام الحمام لأغراض البريد .

الواقع أن الشرق القديم عرف استخدام الحمام وغيره من الطير لأغراض البريد منذ أقدم العصور . إذ تشير قصة نوح التي ورد ذكرها في التوراة إلى أن حمامة كانت دليل نوح ومرشده أثناء جريانه فلكه في مياه الطوفان^(٢) . وإذا كانت الاكتشافات لم تهتد بعد إلى مكان سفينة نوح ، فإن الآراء التي تنيرها تلك المحاولات تدل على أن السفينة ألفت مرساها بإحدى جهات الشرق . كذلك يقص القرآن نبأ استخدام المدهد في نقل الأخبار ، إذ خل إلى سليمان خبر مملكة سبأ ، ونقل إلى بلقيس رسالة من سليمان يدعوها

(١) شهاب الدين بن العمري : التعريف بالمصطلح الشريف ، ص ١٩٦ .
، ميخائيل بن نقولا الصباغ : مسابقة البرق والتمام في سعادة الحمام (ترجمه من العربية سلفستر دي ساسي باريس ١٨٠٥) ص ٣٧ .

(٢) العهد القديم ، سفر التكوين ، الإصحاح الثامن ٧ ، ٨ .

فيها إلى الإسلام^(١). وحوالى القرن السادس قبل الميلاد أخذ اليونان عن فارس القديمة^(٢) استخدام الحمام الزاجل في نقل الأخبار ، فأطلقوا الحمام أثناء عقد الدورات الأولمبية ، لإذاعة أخبار المباريات بين البلاد اليونانية^(٣). ويبدو أن الرومان نهجوا تلك السبيل ، إذ بلغ من اهتمامهم بأخبار سباق العجلات في روما أنهم حملوا معهم حماما زاجلا، يذيعون به أخبار السباق إلى سائر المدن الرومانية^(٤).

أما أول إشارة تاريخية لاستخدام الحمام الزاجل في الحروب فهي سنة ٤٤ ق. م ، حين حاصر أنطونيوس الشهير مدينة مودينا بإيطاليا الحالية . إذ تبادل القنصل بروتس حاكم مودينا الرسائل مع زميله هيرتيوس خارج المدينة بالحمام الزاجل^(٥). ويبدو أن استخدام الحمام أثناء الحروب شاع في أوروبا الرومانية — بما في ذلك بلاد اليونان طبعاً — إلى درجة جعلت المؤرخ الكبير بلني يسأل لماذا تقام الأسوار والحراس وتنصب الشباك في الأنهار ، ولأخبار سبل في الهواء^(٦)؟ ومن المرجح أن أوروبا الرومانية التي تلقنت من الشرق طريقة استخدام الحمام الزاجل أثرت بدورها على نظم الحمام الزاجل في الشرق في العصور الوسطى ، إذ اكتسب الحمام في تلك البلاد لقباً آخر هو حمام البطاق . ويبدو أن ذلك تعريب الكلمة اليونانية II IT'AKIOV

(١) سورة النمل، آية ١٩ إلى ٣٠ .

(٢) لعل قصص كليله ودمنة المراجعة عن البهلوية — وهي اللغة الفارسية القديمة — توضح ما كان للحمام من مركز ملحوظ في فارس القديمة ، إذ وردت في ذلك الكتاب قصة بأكملها عن الحمامة المطوقة وسربها الذي استطاع بتعاونه أن يفلت من شبكة الصياد .

(٣) Daremberg et Saglio : Dictionnaire des Antiques (Art. Columbarium).

(٤) Pauly-Wessowa : Real-Encyc. (Art. Brief-Taube).

(٥) يقول المؤرخ بلني عن استخدام الحمام في الحروب (Pliny: Naturalis Historia vol. 10, 110.) ما نصه :

quin et inter-nuntiae in magnis rebus fuere, epistolas adnexas earum pedibus obsidione Mutinensi in castra consulum Decumo Bruto mittente:

(٦) يتسائل : بلني هذا السؤال في اللاتينية (Ibid: vol 10, 110.)

quid Vallum et Vigil obsidio atque etiam retia in amne praetenta profuere Antonio per Caelum eunte nuntio ?

وأحب هنا أن أشكر الأستاذ درو والدكتور زيادة بكلية الآداب — جامعة فؤاد — على ما قدمه كل منهما إلى من معلومات هامة في بناء هذا المقال .

أى ورقة أو رسالة صغيرة^(١) .

على أن أول إشارة للحمام فى التاريخ الإسلامى هى قصة الحمامتين اللتين باضتا فوق غار ثور ، إبان هجرة الرسول ؛ ثم إنه من المعروف أن النبى أزال من الكعبة حينما حطم أصنامها بعد فتح مكة تمثالا للحمامة مصنوعاً من خشب النخل^(٢) . وفى هاتين الإشارتين ما يدل على ما للحمام من شأن فى بلاد العرب الإسلامية ، وهى البلاد التى اشتهرت بكثرة الحمام فى وديانها منذ القدم .

واستخدم المسلمون الحمام فى أغراض اللهو على عهد الخليفة عثمان بن عفان ، فكان الفتيان والماجنون يطلقون الحمام فى مباريات للسباق ، وكثيراً ما كان ذلك مجالا للمراهنة والمقامرة . واستخدم الفتيان الحمام كذلك وسيلة لإيقاع الأذى بالناس والجيران ؛ إذ كان الحمام يرسل لفقء عين عدو أو تهشم أنفه ، حتى ضج الناس من ذلك لأن المصاب لا يستطيع أن يقف على صاحب الحمام ويذهب الحرم دون « قَتود ولا أرش^(٣) » ، على قول الجاحظ . ولذلك أمر عثمان بمنع اللعب بالحمام ، وذبح أية حمامة تقع فى يد إنسان يعلم أنها أطلقت ابتغاء للهو أو الإيذاء^(٤) . على أن أول شاهد تاريخى على استخدام الحمام فى الدولة الإسلامية لنقل الأخبار فى العصور الوسطى يقع سنة ٢١٢ هـ (٨٣٧ م) ، إبان عهد المعتصم العباسى ، حين نقل الحمام إلى الخليفة نبأ القبض على الثائر بابك الخرمى^(٥) . وحوالى ذلك الوقت أى خلال القرن الثالث الهجرى استخدمت إحدى الفرق السياسية فى الدولة الإسلامية الحمام الزاجل لأغراض الدعاية ؛ إذ نظم رئيس فرقة القرامطة بالعراق الحمام الزاجل ، واستخدمه على نطاق واسع لنقل الأخبار من جميع النواحي بالعراق قبل إذاعتها بين الناس ؛ وهكذا استعان هذا الرئيس القرمطى بالشعوذة وإيهام الناس بعلم الغيب وتقدير المقادير^(٦) . وتفيض كتب الأدب المعاصرة

(١) ميخائيل بن الصباغ : مسابقة البرق والغمام ، ص ٨٨ ، حاشية ١ .

(٢) Joseph Hell: Die Kultur der Araber (Leipzig 1919), 28.

(٣) الجاحظ : الحيوان ، ج ٣ ، ص ١٩٠ ، ١٩١ : أى دون قصاص أو دية عن الجراحات .

(٤) نفس المرجع ، ص ١٩٢ .

(٥) السعوى : مروج الذهب (مصر) ج ٤ ، ص ١١ .

(٦) آدم متر : الحضارة الإسلامية ، ج ٢ ، ص ٣٥٨ (ترجمة أبو ريدة) .

لتلك الفترة بذكر الحمام الزاجل وأوصافه وتدريبه ، مما يحمل على الاعتقاد أن نقل الأخبار بالحمام في القرن الثالث الهجرى سبقته دلالات عديدة على استخدامه في الدولة الإسلامية الأولى ، ولعل البحث الحديث يكشف عنها الستار .

ومما يحمل على ترجيح ذلك الظن أن الجاحظ أحد العلماء المعاصرين للمعتمد وضع كتاباً عن الحيوان ، أسهب فيه الحديث عن الحمام وتدريبه ، وبين مبلغ اهتمام الناس في العراق به وما وصل إليه فن تدريبه من رقى . وتفصيل ذلك أن الجاحظ قسم أنواع الحمام إلى حمام عادى وحمام رسائلى ، وذكر أن الحمام الرسائلى — وهو الزاجل — كان يختار حسب أسس وأوصاف معروفة ، ويراعى في تدريبه أساليب مقررّة . فكان يشترط في ذلك النوع من الحمام اعتدال العنق واستدارة الرأس ، من غير عظم ولا صغر ، ولحوق بعض الخوافى بعضها ببعض ، وقصر الساق والذنب . كذلك كان يراعى في الحمام الزاجل صفاء البصر وثبات النظر ، وشدة الحذر وحسن التلفت ، وخفة النهوض في الطيران والعلو في الجو ، مع مد العنق وقلة الاضطراب ، وحسن القصد في غير دوران ؛ وأتقن معرفة ذلك كله أناس في العراق لانتقاء أجود أنواع الحمام الزاجل وأحسنها أصولاً وأنساباً (١) .

أما تدريب الحمام فكان يبدأ بعد اختياره وانتقائه صغيراً ، فتحمل الفراخ جاثئة إلى سطح إحدى الدور في منتصف النهار ، وينثر الحب على السطح حول صارٍ فوقه علم . واشترط مدرب الحمام أن يكون العلم واضح اللون — فلا يكون أسود مثلاً — حتى يمكن الاهتداء إليه . وفي أغلب الأحيان كان إطلاق الفراخ بعد مدة من قص ريشها ، على أن تطلق مثنى أى زوجين زوجين ، بحيث تكون إحداهما أحدث قصاً لريشها من صاحبتها . ثم يطلق المدرب الحمامة التى نما ريشها ، فلا تلبث أن تعود حينئذ إلى صاحبتها

(١) الجاحظ : الحيوان ، ج ٣ ، ص ٢٦٩ ، ٢٧٢ .

وكان الرومانيون كذلك يهتمون بمعرفة أنساب الحمام والمحافظة على أصوله ، وبرع منهم رجال في حفظ أنساب الحمام . فيقول في ذلك بليى : ج ١٠ ، الفصل ١١٠ .

“super tecta exaedificant turris his, nobilitatemque singuarum et origines narrant.”

فان ذلك بما جاء في الجاحظ : الحيوان ، ج ٣ ، ص ٢٠٩ ، ٢١٠ .

وبذا يضمن المدرب تأليف الحمام وعودته إلى أمكنة تدريبيه وهى المزاجل . ولم يقتصر الأمر على المزاجل فوق الدور ، بل استخدمت السفن أحياناً لذلك الغرض تدريباً للحمام على الطيران عبر البحار . وكان من أهم أركان التدريب للحمام أن تصبح الحمامة وحدها قادرة على الرجوع إلى مصدرها ، وهو الذى اصطلح الجاحظ على تسميته « الغاية »^(١) .

وكان التدريب يقوم فى ذلك الوقت على أساس أن الحمام يهتدى إلى « الغاية » بجودة الاستدلال ، والوعى وحسب الرجوع إلى أربابه ، ولو كان الوقت ليلاً . ومن أسس التدريب كذلك أن يلزم الحمام بطون الأودية التى يمر بها مهتدياً بانحدار الماء ، وإذا أعيتته بطون الأودية ولم يدر أمصعد هو أم منحدر كان يستدل بالريح ومواضع الشمس فى السماء^(٢) نهاراً والنجوم ليلاً ، كما يقول الجاحظ .

على أن تربية الحمام الزاجل لم تقتصر على العراق فحسب ، بل اشتهر الإقليم الشمالى من الشام كذلك بتربيته واستخدامه فى نقل الرسائل ، فى القرن الثالث الهجرى . وتوضح هذه الإشارة أن العناية بالحمام الزاجل بشمال الشام أقدم كثيراً من زمن نور الدين والقرن السادس الهجرى ، فكان حصن الحجير الذى يقع فى جبل اللكام قرب أنطاكية وإقليم الثغور الشامى حيث تقع المصيصة وطرسوس وأذنه ، تحفل برجال مهروا فى تدريب الحمام وتكلفوا فى سبيل ذلك التكاليف الكثيرة أيام الزجل ، أى تدريب الحمام فى الانتقال من مكان إلى آخر . وكانوا يدرّبون الحمام بجماعات أو فرادى حسب الحاجة ، ويجهّدون فى المحافظة على أنسابها خشية أن يصيبها الضوى - وهو الهزال والضعف - إذا تقاربت أنسابها أو دخل على أعراقها سلالات خارجية أثناء تدريبها . وكانوا يجهّدون فى فترة زجل الحمام إلى أشخاص موضع ثقة وأمانة وبعد عن الكذب والرشوة لمراقبة أعلام الغاية^(٣) ، وتسجيل خطوات التدريب .

والخلاصة أن العناية بالحمام كانت ظاهرة منتشرة فى أرجاء العراق

(١) الجاحظ : الحيوان ، ج ٣ ، ص ٢٧٢ .

(٢) الجاحظ : الحيوان ، ج ٣ ، ص ٢١٦ .

(٣) نفس المرجع ، ص ٢١٣ .

والشام من القرن الثالث الهجرى ، وأن الخلفاء العباسيين وكبار رجال دولتهم ورؤساء الناس ولا سيما بالبصرة البعيدة عن مركز الخلافة ببغداد اقتنوا الحمام الزاجل لأغراضهم . وسرعان ما شاع استخدام الحمام الزاجل في تلك البلاد بصورة ملحوظة ، منذ أوائل القرن الرابع الهجرى . ومن أمثلة ذلك أن الوزير حامد بن العباس أرسل سنة ٣٠٤ هـ (٩١٦ م) إلى الخليفة في بغداد كتاباً بواسطة الحمام تخبر بخروجه وتوجهه إلى العاصمة^(١) ؛ وأشاع القرامطة هذا الخبر في البصرة قبل وصول الذبأ رسمياً إلى تلك المدينة بأربعة أيام ، ويعزى ذلك إلى أن القرامطة بتلك المدينة وصلهم الخبر في رسالة جاءتهم على جناح طائر^(٢) . كذلك أعدّ الوزير على بن عيسى سنة ٣١٣ هـ (٩٢٨ م) رجالاً يحملون حمماً إلى الكوفة ، لإمداد الخليفة المقتدر بأخبار القرامطة وأحوال الحرب ضدهم^(٣) بجنوب العراق ؛ وعلم الخليفة بزوال خطر القرامطة عن الكوفة ، بفضل رسالة بعثها إليه أحد الكوفيين على جناح حمامة قبل أن يتمكن الحراس والمراقبون الموكلون من قبل الوزير على بن عيسى من نقل الخبر بواسطة الحمام الذى كان في عهدهم^(٤) . وكانت الرسائل تصل إذ ذاك في نظام وسرعة حتى إن الرسالة كانت تصل من الرقة والموصل وواسط والبصرة والكوفة إلى بغداد في يوم وليلة^(٥) .

ويرجع استخدام الحمام في مصر كذلك إلى ما قبل نور الدين ، إذ يقول ابن الأثير إن استخدام الحمام في نقل المراسلات بلغ درجة كبيرة من التقدم والرقى في عهد الفاطميين الذين استخدموا الحمام في نقل الأخبار من سفن الاستطلاع^(٦) التى كان يوكل إليها مراقبة حركات الأساطيل النورمانية التى دأبت على الإغارة على شواطئ إفريقية في أواخر العهد الفاطمى . ففي سنة ٥٤٣ هـ (١١٤٨ م) وقعت إحدى هذه السفن الفاطمية

(١) آدم متر : الحضارة الإسلامية ، ج ٢ ، ص ٣٥٨ .

(٢) عريب بن سعد القرطبي : صلة تاريخ الطبرى (لیدن ١٨٩٧) ، ص ١١٠ ، ١١١ .

(٣) ابن مسكويه : تجارب الأمم (مصر) ، ج ٥ ، ص ١٧٩ .

(٤) آدم متر : الحضارة الإسلامية ، ج ٢ ، ص ٣٥٨ .

(٥) نفس المرجع ، ص ٣٥٨ .

(٦) كان الفينيقيون القدماء يستخدمون الحمام لربط سفنهم بقواعدهم الثغرية في حوض البحر الأبيض الشرقى . انظر (Brief-Teube) : Paule-Wessowa

التابعة لأسطول المهديّة في يد المدعو جرجى أمير البحر على الأسطول النورمانى الصقلّى عند جزيرة قوصرة (تسمى الآن بانتلاريا ، وتقع بين المهديّة وصقلية) . وباستجواب بحارة هذه السفينة وجد جرجى فى حوزة أحدهم قفصاً به حمام . وبعد أن تأكد أمير البحر النورمانى من بحارة المهديّة أنهم لم يطلقوا أية حمامة من القفص ، أمر البحار صاحب القفص أن يكتب رسالة يخبر فيها حاكم المهديّة أنه لقي عند جزيرة قوصرة بعض مراكب للنورمان ، وأنه سأل عن حركات أسطولهم ، فعلم أنه فى طريقه إلى القسطنطينية . ثم أطلق امير البحر حمامة بتلك الرسالة إلى المهديّة ، وأراد من وراء ذلك القيام بهجوم مفاجئ على العاصمة التونسية وقت السحر . ونجحت تلك الحيلة إذ اطمأن حاكم المهديّة ، ولم يتخذ أية احتياطات لدرء الهجوم النورمانى ، لكن رياحاً مضادة أفسدت تدبير أمير الأسطول النورمانى الذى وصل إلى مياه المهديّة فى وضوح النهار^(١) .

وإذا كانت الرواية السابقة تكشف عن مبلغ ما وصلت إليه البحرية الفاطمية من تقدم فى استخدام الحمام ، لربط الأسطول بقواعده البرية ، والحصول على معلومات من أجل الدفاع واتخاذ الاحتياطات ، فإن تلك الحقيقة تبيّن أن استخدام الحمام فى الحركات البحرية ليست إلا نتيجة تطور فى أساليب تدريب الحمام فى نقل المراسلات البحرية ، وما يتطلبه ذلك من محاولات ترجع منطقياً إلى فترة سابقة لآخر عهد الفاطميين . ولقد اتضح من إشارة سابقة أن أهالى العراق كانوا يدربون الحمام براً وبحراً على نقل المراسلات ، قبل زمن الفاطميين بكثير .

وتوجد إشارات دالة على استخدام الفاطميين للحمام فى نقل الأخبار بين أجزاء إمبراطوريتهم ، ففى القلقشندى أن اليازورى وزير الخليفة المستنصر الفاطمى أرسل حماماً من تونس إلى مصر^(٢) . كذلك كان يوجد خط بريد يربط الشام بمصر بواسطة الحمام ، ويدل على ذلك أن الخليفة العزيز الفاطمى ذكر لوزيره ابن كلس أنه لم ير القراصية البعلبكية منذ أمد طويل ، فأرسل الوزير حمام دمشق الذى كان إذ ذاك موجوداً بالقاهرة إلى حاكم العاصمة

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج ١١ ، ص ٥١ .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ١٤ ، ص ٣٩٠ .

الشامية يأمره أن يطلق في حمام القاهرة الموجود بمدينة دمشق حبات قراصية ؛ وقبل أفول شمس ذلك اليوم كان الحمام القاهري قد وصل حاملًا القراصية (١) . والحاصل أن استخدام الحمام في مصر والعراق والشام ظاهرة تسبق عهد نور الدين والدول الإسلامية ، وربما تكشف الأبحاث التاريخية أن أباطرة الدول الرومانية كانوا يستخدمون الحمام في مراسلاتهم إلى عمالهم في مصر وغيرها من الأقاليم ، على نسق ما تقدمت الإشارة إليه بصدد أنطونيوس الروماني ، وربما كشفت الأبحاث التاريخية كذلك أن الدول الجرمانية في غرب أوروبا ورثت ذلك النظام في نقل الرسائل عن الدولة الرومانية .

إبراهيم أحمد العدوى

(١) الفلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١٤ ص ٣٩١ .